منال وحسين
(4)

حَجٌ مَبرُور

الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي
(رحمها الله)

حج مبرور

أماني العشماوي

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاه طولَ الْوقتِ، فأنا الأختُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يقترِحُ علَيَّ أنواعًا مِنَ الألعابِ تَنْتَهي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنّ أخي حسينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعُقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

عندما كنا أصغر من ذلك، اقترحت على أخي حسين أن نطلق لقب عمي وعمتي على كل أهل أبي، وخالي وخالتي على أهل أمي، فزوجات الأعمام عمات، وزوجات الأخوال خالات، وكذلك أزواج العمات أعمام، وأزواج الخالات أخوال.. وقد أعجب حسين

بهذه الفكرة وقال إنها توفر علينا الاستطراد في وصف الأقارب، ويصبح من السهل معرفة إن كان الشخص قريبًا لأمنا أم لأبينا.

مر عيد الأضحى مختلفا هذا العام، فقد أمضيناه في بيت عائلة أبي مع عمي محمود وزوجته العمة فاتن، وعمتي زينب وزوجها عمي حمدي، وهو ابن عمها في نفس الوقت.. لكن جدتي، نانا أمينة، وعمي الكبير سليمان وزوجته العمة خديجة لم يكونوا حاضرين، فقد كانوا يؤدون فريضة الحج.

وبعد انتهاء شهر ذو الحجة كله وفي بداية شهر المحرم.. عادت جدتي ومعها عمي وزوجته من رحلة الحج، وكنا في انتظارهم للترحيب بهم مع أولاد أعمامي وعمتي، بعده بذل أهلنا مجهوداً عظيماً لإقناعنا أن ننسحب الطابق الأول، حيث يسكن عمي سليمان وزوجته وأولاده مع جدتي.. لنترك الحجاج يرتاحون قليلاً، وأن نقضي الليلة في بيت عمي محمود، الأصغر الذي يسكن الطابق الثاني.. فانسحبنا راضين، لأنهم سمحوا لأولاد عمي سليمان أن يبيتوا معنا.. وتجمعنا كلنا في المطبخ لتناول العشاء، لكن أمي نبهت عمتي فاتن زوجة عمي محمود أننا لن ننتهي من العشاء قبل ثلاث

ساعات إذا اجتمعنا حول المائدة، فأعدت لنا العمة فاتن، بمساعدة أمي وعمتي زينب الأخت الوحيدة لأبي، صينية كبيرة من الشطائر، وإلى جوارها صينية أخرى بها قِطَعاً من الخس والجزر والطماطم، وتجمعنا كلنا من جديد حول المائدة، ورحنا نأكل.. ونتحدث ونضحك.. حتى بعد أن انتهى الأكل.. حتى عادت أمي وطلبت منا مغادرة المطبخ.

تجمع الأولاد في غرفة الصبيان، على المراتب المفروشة على الأرض، وانتقلنا، نحن البنات، من غرفة البنات، إليهم. وجلسنا نلعب ونتحدث كالعادة.. حتى جاءت عمتي زينب وأرجعتنا إلى غرفة البنات، وأطفأت نور الغرفتين، وقالت كلمة واحدة فقط، كعادتها: "ناموا". فنمنا من شدة التعب والسهر.

قمنا في الصباح الباكر لننزل إلى بيت جدتي، لكن عمي محمود أمرنا أن نفطر ونساعد في ترتيب البيت قبل الذهاب لرؤية جدتنا. فانشغلنا كلنا بالعمل، ونحن نتحدث ونضحك طبعاً، فقالت العمة فاتن زوجة عمي محمود:

"لو أننا استطعنا أن نحول كلامكم إلى طاقة مثل الطاقة الشمسية، لَكُنّا استغنينا وأغنينا كل من حولنا".

المهم، نزلنا، واستقبلتنا نانا أمينة بالترحيب، وقدمت لنا الهدايا التذكارية، وجلسنا حولها في الشرفة البحرية المطلة على الحديقة لتحكي لنا عن الحج.. حتى جاء عمي سليمان وطلب منها النزول إلى الحديقة لنترك جدتي ترتاح قليلاً قبل أن تصل وفود الضيوف.. وفعلا نزلنا إلى الحديقة، فلعبنا مباريات في كرة الطاولة وكرة السلة وغيرها من الألعاب والمطاردات.. وفي وقت الغداء، أنزل لنا عمي محمود صواني الشطائر في الحديقة كي لا نشغل أهل البيت عن الترتيب لمجيئ الضيوف.

وفعلاً، بعد الغداء، بدأت وفود المهنئين بالوصول.. وامتلأت غرف البيت كلها بالضيوف من الأقارب والمعارف والزملاء والجيران، وتجمعنا كلنا في الشرفة البحرية، وهي شرفة كبيرة جداً، أكبر من أكبر غرفة في البيت، مع أبناء الضيوف، وجلسنا في حلقات على الأرض المفروشة بالحصير، نتعارف ونتحدث ونلعب..

وبين الحين والآخر كنت أقوم أنا وياسمين ابنة عمي سليمان، لنأتي بصينية عليها الفطائر والكعك، أو أكواب العصير.. لضيوفنا.. ولنا طبعاً.

بمرور الوقت، أصبحنا، نحن والضيوف أصدقاء، واشتركنا جميعاً في لعبة المطاردة التي كنا نفضلها على باقي الألعاب، وهي عبارة عن أن مجموعة منا تطارد المجموعة الأخرى، فنجري في كل أنحاء البيت، ونختبئ في كل الأماكن الممكنة.. مثل وراء الأبواب أو بين المقاعد وتحت الأسرة وفوق الدواليب.. وداخلها.

انزعج أعمامي وعماتي، وأمي وأبي طبعاً، من مطارداتنا، خاصة وقد كان عددنا كبيراً جداً.. فقال عمي سليمان بحسم:

"إما أن تظلوا في الشرفة البحرية أو غرفة جلوس نانا، وإما أن تتركوا البيت كله وتنزلوا إلى الحديقة".

توقفنا عن المطاردة، وانسحبنا ببطء إلى غرفة جلوس جدتي، لنخرج منها إلى الشرفة، وفي الطريق، وجدنا أحمد أصغر أبناء عمي سليمان وجميلة أصغر بنات عمتي زينب يجمعان الأحذية من

أرجاء غرفة نوم نانا ويصُفَّانِها على طاولة ركنية من طابقين.. فسألناهما عم يفعلان، قالا: "نقيم معرضاً للأحذية".

فتجمعنا كلنا لنشاهد معرضهم..

.. وبعد أن انتهت أحذية نانا، انطلق أحمد إلى غرفة نوم والديه ليجمع أحذيتهم، واقترحت ياسمين، ابنة عمي سليمان الكبرى أن تذهب جميلة إلى غرفة نوم الأبناء لتجمع هي الأخرى ما تجده هناك من أحذية.. وانضممنا كلنا لنتسيق الأحذية الموجودة، وتبرعنا بأحذيتنا لإضافتها للمعرض.. وامتلأت المنضدة بطابقيها.. فأحضر أحدنا المجلات القديمة وفرشها على المقاعد والأرفف لنضع فوقها ما جمعناه من الأحذية.. وانتهينا من صف كل ماعثرنا عليه، ومازال هناك مزيد من الأرفف والمسطحات التي يمكن رص الأحذية عليها..

وهنا انبرى أخي حسين مقترحاً:

"هناك.. عند باب غرفة الجلوس القبلية، ترك الضيوف أحذيتهم عندما كانوا يصلون العصر.. يمكننا إحضارها، ثم إعادتها بعد انتهاء المعرض".

وأعجب الجميع بالفكرة العبقرية، ووقفنا، نحن الكبار، أي الذين تزيد أعمارهم عن سبع سنوات، في الغرفة، وأرسلنا الصغار ليحضروا ما يجدوه عند الباب.. ثم دار الكبار على غرف البيت، ليدلوا الصغار على ما يجدوه من أخذية على الأبواب الأخرى..

فلما صففنا كل ماوجدناه من أحذية، زادت شهيتنا لتوسيع المعرض، خاصة أن أبناء عمي سليمان ساهموا معنا في نقل ماوجدوه من أشياء نانا أمينة مثل الكتب أو أقلام وغيرها.. من فوق الطاولات والأرفف إلى غرفة نومها، للحفاظ عليها وحمايتها من عبثنا.. فأصبح لدينا مزيداً من الأماكن.

فاقترح حسين اقتراحاً أشد هولاً من الأول، اقترح أن يذهب الصغار، الذين هم أقل من خمس سنوات إلى بعض الضيوف الذين يعرفونهم معرفة جيدة ويستأذنوهم من استعارة أحذيتهم..

شعرت أن اللعبة خرجت عن السيطرة، وأننا معرضون لارتكاب أخطاء شنيعة، فقلتُ محذرة:

"حسين.. إلا هذا.."

فقال لي مطمئناً:

"لا تخافي، سوف نعيدها قبل أن يستعدوا للرحيل".

ولم يدع لي الصغار فرصة للتردد، فانطلقوا إلى الغرف والشرفات، يستأذنون من يعرفونهم ومن لا يعرفونهم أن يستعيروا أحذيتهم.. فيجلس الصغير أمام الضيف على الأرض ويمسك بالحذاء وهو يقول برقة وابتسامة: ممكن ياعمي؟ أو (ياعمتي).. دقيقة واحدة"؟

فيبتسم الضيف ويخلع حذاءه دون نقاش، فيحمله الصغير ويعود إلينا راكضاً.

أمضينا بعد الظهر كله نرتب ونصف الأحذية، ونبتكر طرقاً جديدة لعرضها.. وانشغلنا في مشروعنا هذا لدرجة أننا لم ننتبه إلا عندما جاءت أمي تنادي أبناء الضيوف.. ومن ورائها جاءت العمة خديجة تقول بحرج وتردد: " هل ترك أحدهم حذاءه هنا؟"

فأجبنا كلنا بحماس: "نعم، نعم.. فليأت من يريد حذاءه، ويبحث عنه ويأخذه"!!

نظرت أمي والعمة خديجة حولهما، ثم شهقا، وظهر عليهما الانزعاج.. ثم خرجتا دون أن تنظرا ناحيتنا.. ودعنا أصدقاءنا الجدد بإشارة بسيطة من أيدينا، وردوا علينا بإشارة مماثلة، وغادروا البيت مع أهلهم..، وانسحبنا نحن إلى الشرفة، وجلسنا على الحصيرة نتهامس.. ونحن نرى أمي والعمة خديجة يأتون بالضيوف تباعا ليعثروا على أحذيتهم في المعرض.. حتى أذن المغرب وتوقفت الوفود قليلا للصلاة، لكننا لم نجرؤ على مغادرة الشرفة، ثم عاد الضيوف لالتقاط الأحذية حتى انتهى المعرض قبل صلاة العشاء.

بعد صلاة العشاء، أحضرت لنا أمي صينية الشطائر وأكواب الحليب إلى الشرفة فأكلنا دون اعتراض أو طلبات.. وجلسنا ننتظر الحكم علينا.

أخيراً، نادانا عمي سليمان، وجمعنا في غرفة جلوس جدتي.. وقال بحسمه المعهود: "هل تعلمون ماذا فعلتم بالضبط"؟

انبرى أحمد، أصغر أحفاد نانا أمينة، قائلا: "أقمنا معرضا للأحذية"!

فنظر له عمي في صمت، فعرف الصغير أن الكلام ليس موجهاً له، وأنه أجاب إجابة غير التي يريدها أبوه.. فسكت. وأطرقنا كلنا رؤوسنا.

فقال عمي: "كان هذا إزعاجاً شديداً للضيوف.. وحرجاً شديداً لنا، أهل البيت.. من صاحب هذه الفكرة العجيبة"؟

فرفعت رأسي ونظرت في وجه عمي، فوجدته ينظر نحو أخي حسين، فأطرقت مرة أخرى ولم أتكلم..

فتابع: "على كل حال.. صاحب الفكرة والذي ساهم في تنفيذها مخطئون بنفس القدر.. هيا.. أعيدوا كل شيء إلى مكانه، ولن يُسْمَح لكم باستعمل غرفة جلوس نانا أو شرفتها أو لعب لعبة المطاردة داخل البيت مدة شهر كامل".

ثم قام وانصرف.. وقمنا نحن نجمع أحذية أهل البيت، ونعيدها إلى أماكنها، وجمعنا الأوراق والمجلات التي استعملناها في فرش المعرض ووضعناها في كيس للقمامة.. ومسحنا الأرفف والمناضد، وأعدنا أشياء جدتي كما كانت.. ثم ارتدينا أحذيتنا في صمت، دون أن ينظر بعضنا نحو بعض. ثم انصرفنا إلى الأماكن المقررة لمبيتنا.